مدارس علم النفس ونظرة المدرسة الإسلامية

د . سابق بن سليمان *

يعتبر علم النفس من أهم العلوم الحديثة التي تسعى إلى إسعاد أكبر وأكثر عدد ممكن من بنى الإنسان . نجد في كثير من الناس ميلاً قوياً لدراسة علم النفس وفهم موضوعه وميادينه وطرق البحث فيه ، كلما ازداد شعورهم بما يعانون من مشاكل أو أزمات نفسية . إن علم النفس يبحث عن الحقائق النفسية في حد ذاتها فهو يطرق كثيراً من خفايا أنفسنا وأخطائها ونزعاتها ورغباتها المكبوتة ويحاول إبرازها بالدراسة والتحليل . إن علم النفس يتفق في حقائقه مع ما تنادى به تعاليم الدين الصحيحة القائمة على العقل والبرهان والدليل المنطقي والبحث الفكري المقنع .

كان هناك محاولات لفهم الطبيعة الإنسانية ظهرت قبل نشأة علم النفس العلمي ، وتعتبر هذه المحاولات قديمةً قدم التاريخ المدون نفسه . فأول المحاولات لشرح الطبيعية الإنسانية كانت تعزو شعور الإنسان الواعي إلى روح داخلية أو كان داخل صغير يسكن في مكان ما من جسم الإنسان . بعد ذلك حاول المفكرون اليونانيون من أمثال أفلاطون (Plato) وأرسطوطاليس (Aristotle) الحديث عن الروح Psyche or Soul ، تحدثوا عنها كمركز للخبرة . ولقد اشتق علم النفس اسمه من هذه الكلمة .

إن علماء النفس في القرون الماضية كانوا يعملون في مجالات محدودة مثل الخبرات الحسية والفروق الفردية وذكاء الحيوان ونمو الطفل والشخصية السوية والشاذة ، ولم تكن لديهم خطة عامة أو رابط يجمع هذه المعلومات المتناثرة . ولم تكن اتفاق عام بين علماء النفس على طبيعة هذا العلم ، ثم بدت الحاجة إلى جمع هذه المعرفة السيكولوجية

* أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغة العربية ، كلية ممباد ، كيرلا ، الهند .

ليكون أساساً للبحوث المستقلة . وقد أدت هذه الحاجة إلى ظهور المدارس السيكولوجية في القرن الحالي .

في الربع الأول من القرن العشرين ظهرت مبادئ ووجهات نظر مختلفة عن طبيعة القلب وطرق دراستها . وارتفعت الأسئلة الأساسية مثل : ما موضوع علم النفس ؟ أهذه دراسة عن القلب ؟ أهذه دراسة عن السلوك ؟ أم كلتاهما ؟ المدارس تعرف مدارس علم النفس الفكرية . هناك عوامل تجمع بين هذه المدارس كلها ، من ذلك أنها تعمل جميعها في نفس الميدان العام ، وهو دراسة سلوك الفرد : الإنسان والحيوان ، الطفل والراشد ، والسوي والشاذ .

من أهم المدارس لعلم النفس :

١. المدرسة البنائية Structuralism :

في عام ١٨٧٩م . أسس العالم وليم فونت William Wundt أحد علماء الفيسيولوجيا الألماني علم النفس كعلم مستقل ، وذلك بإنشاء أول معمل تجريبي لعلم النفس ، وأجرى دراسات مبكرةً على ظواهر الإحساس والتخيل . بعد ذلك بقليل ظهرت معامل أخرى لعلم النفس في أوربا وأمريكا .

لقد أطلق على فونت وأتباعه أنصار المدرسة البنائية Structuralism ، ذلك لأنهم كانوا يدعون أن الخبرات العقلية المعقدة ما هي إلا تركيبات مكونة من حالات عقلية بسيطة مثل المركبات الكيماوية التي تتكون من عناصر كيماوية بسيطة . منهج البنائية فكانت عبارة عن التحليل الاستباطي أي تحليل الخبرات الشعورية عن طريق الاستبطان [١] .

٢. المدرسة الوظيفية Functionalism :

في عام ١٨٩٩م نشأت مدرسة من مدارس علم النفس أسسها بعض العلماء الذين لم يرضوا باتجاه البنائية في التوكيد على الحالات العقلية . نظراً لأنهم أرادوا معرفة كيفية استخدام الناس للخبرة العقلية في

[١] د . عبد الرحمن العيسوي ، أصول البحث السيكولجي علمياً ومهنياً ، دار الراتب الراتب الجامعية لبنان ، ١٩٩٦م ، ص ٤٤ .

التكيف مع البيئة ، فقد أطلق عليهم اسم " الوظيفيين " ومن قادة المدرسة الوظيفية وليام جيمس William James وجيمس أنجيل James Angell . في الواقع أرادوا أن يركزوا انتباههم على دراسة عملية التعلم Learning Process ، كذلك كان من أشهر زعمائها جون ديوى John Dewy الفيلسوف التربوي الأمريكي الشهير [1] .

قد كان لهذه المدرسة أثرها في تطوير أساليب التربية والتعليم التي اهتمت بالفاعلية والنشاط ، ونظرت إلى المعلومات الدراسية المكتسبة لا من حيث كميتها ومقدارها وما يتجمع منها في ذهن التلميذ ، ولكن من حيث أهميتها في تحسين السلوك وتنشيط العقل واكتساب الاتجاهات التي تساعد على حسن التصرف .

٣. المدرسة الترابطية Associationism :

قامت هذه المدرسة لتفسير السلوك باعتباره سلسلةً متصلةً من العمليات العقلية المترابطة التي يحدث بعضها في أثر بعض ، ويرجع أصلها إلى تفسير علماء الفيسيولوجيا للتصرفات الحسية والحركية باعتبارها سلسلةً من التوصيلات المتلاحقة التي تنتقل في أجزاء الجهاز العصبى وأجهزة الحسية والحركة .

من أهم الباحثين من أنصار هذه المدرسة " مل " و " براون " اللذان وضعا قوانين الترابط للعمليات والمحتويات العقلية ، من أهمها قانون الترابط بالاقتران ، وقانون التشابه وقانون التضاد . ويمكن هذه المدرسة مكملة المذاهب العنصرية والتكوينية والوظيفية أيضاً ، كما أنها قد اتخذت أساساً للمدارس الأخرى مثل المدرسة السلوكية ومدرسة التحليل النفسي .

إن مدرسة الترابطية قد مرت بثلاث مراحل : المرحلة الأولى بدأت مع أرسطو ، والمرحلة الثانية بدأت مع لوك وهوبز وهيوم ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فقد جاءت على يد ثورندايك Thorndike وبافلوف Pavlov [2] .

---

[1] د . عبد الرحمن العيسوي ، أصول البحث السيكولجي علمياً ومهنياً ، مرجع السابق ، ص ٤٤ .

[2] د . صالح حسن أحمد الداهري و د . وهيب مجيد الكبيسي ، علم النفس العام ، الطبعة الأولى ، دار الكندي ، الأردن ، ص ٨٤ .

٤. المدرسة الغرضية Purposive school :

هناك مدارس كثيرة تنكر أن السلوك يمكن أن يفسر على أسس ميكانيكية ، كما أن هناك أغراضاً وغايات تعين السلوك وتوجهه ، ذلك أن سلوك الكائن الحي إنساناً كان أم حيواناً . إنما يهدف إلى تحقيق غرض أو غاية . وقد يكون هذا الغرض أو هذه الغاية متضمنة في سلوكه وليس شاعراً به ، لا يمكن فهم السلوك أو تفسيره إلا في ضوغ الغاية أو الهدف [١] . فالطائر الذي يجمع القش لبناء عشه لا يكون من دون شك شاعراً بالغرض البعيد عن سلوكه أو بناء العش .

من هذه المدارس مدرسة علم النفس النزوعي للعالم الاسكتلندي " مكدوجل Mc Dougall (١٩٣٨ – ١٨٧١) ومدرسة التحليل النفسي الذي أسسها فرويد وبعض أتباع المدرسة السلوكية الجديدة .

٥. مدرسة تحليل العوامل Factor Analysis School :

تتصدى هذه المدرسة لدراسة الشخصية والذكاء والميول والقدرات والاستعدادات ، وتتخذ من الاختيارات السيكولوجية المختلفة وسيلةً لها في هذه الدراسة ، كما يستخدم الإحصاء بأساليبه البسيطة والمعقدة في فهم وتغيير الشخصية .

تحاول هذه المدرسة للكشف عن أقل عدد من العناصر أو العوامل المستقلة الأولية التي تتألف منها المركبات السيكولوجية كالذكاء والشخصية . تعتمد في بحوثها على تطبيق الاختبارات السيكولوجية المختلفة ، ومعالجة النتائج بطرق إحصائية تصل أحياناً إلى درجة كبيرة من الصعوبات والتعقيد . ويعتبر " سبيرمان Spearman الإنجليزى منشئ هذه المدرسة (١٩٠٤م) ، ويعتبر " ثرستون " Thurstone من أشهر ممثليها بأمريكا .

٦. مدرسة التحليل النفسي Psychoanalytic school :

عندما انفصلت المدرسة الوظيفية عن المدرسة النهائية شهدت أيضاً هذه الفترة تأسيس مدرسة سيكولوجية أخرى في أوائل الفترة من سنة ١٩٠٠م . هي مدرسة التحليل النفسي . لقد ساعد على ظهورها حدوث

[١] د . عباس محمود عوض ، مدخل إلى أسس النفسية والفسيولوجية للسلوك ، دار المعرفة الجامعية اسكندرية ، ص ٢٣ .

تقدم في مجال الطب النفسي والتنويم المغناطيسي ، ولقد قاد حركة التحليل النفسي عالم النفس النمسوي سيجمند فرويد Sigmund Freud ، وركز اهتمامه على العمليات العقلية اللاشعورية . كان رجلاً من رجال الطب ومن المتخصصين في الطب العقلي وفي الأعصاب .

فاللاشعور هو مستودع الآمال والآلام والرغبات المكبوتة التى تؤدي إلى ظهور الاضطرابات العقلية ، ومن أجل ذلك أي من أجل دراسة ظاهرة اللاشعور ابتكر فرويد منهجاً خاصاً هو منهج التحليل النفسي ، ويقوم هذا المنهج على أساس تفسير أفكار المريض ، تلك الأفكار التى تنساب انسياباً حراً بفعل التداعي الحر ، وكذلك عن طريق تحليل أحلام المريض [1] .

من مميزات هذه المدرسة توكيد أثر العوامل والدوافع اللاشعورية في سلوك الإنسان ، ودراسة الشخصية السوية والشاذة ، وتوكيد الأثر الخطير لمرحلة الطفولة المبكرة – علاقة الطفل بوالديه في تشكيل شخصية الراشد وفي تمهيد الطريق لإصابة الأمراض النفسية والعقلية فيما بعد – وأهمية النفسية لمرحلة الرضاعة ، ومفهوم الغريزة الجنسية ودراسة تطورها من الناحية النفسية وصلته بشخصية الفرد ، والمنهج العلمي في تأويل الأحلام وصياغ نظرية ملتئمة عنها .

نلخص نظرية فرويد حول سلوك الإنسان بأنها عبارة عن ثلاث أجزاء (الهو Id ، والأنا Ego ، والأنا الأعلى Super Ego) ، ولكل منهم وظيفته عبارة عن الحاجات البيولوجية الأولية للشخص كالأكل والنوم والجنس ، ولا عقل له يفكر به ويميز بين ما هو صحيح أو خطأ ، والهو قائم على مبدأ اللذة فقط وتحقيقها . أما الأنا فهو عبارة عن مدركات الشخص للواقع من حوله وينمو الأنا مع التنشئة الاجتماعية للطفل فيبدأ يميز طلبات الهو ، وما هو ممكن تحقيقه أو ما لا يمكن تحقيقه ، ويسعى الأنا إلى التوفيق بين الواقع والوقت والطلب المناسب وكيفية تحقيقه ، أما الأنا الأعلى فهو ضمير الإنسان ومعرفة ما يجوز وما لا يجوز ، وهو الذي يضبط على الأنا بتحديد طلبات الهو فإما بالموافقة وإما

[1] د . عبد الرحمن العيسوي ، أصول البحث السيكولوجي علمياً ومهنياً ، دار الراتب الجامعة لبنان ، ١٩٩٧م ، ص ٤٤ .

الرفض أو الموازنة . وتستطيع تمثيل العمليات الثلاث مثل الهو (الطفل) الأنا (الواقع ومتطلباته) بينما الأنا الأعلى (مربى الطفل) [1] .

٧. مدارس التحليل النفسي الجديدة Neo Psychoanalysis :

تؤكد مدرسة فرويد على أثر الغريز – خاصة الغريزة الجنسية وغريزة العدوان في تكوين الشخصية وأحداث الاضطرابات النفسية . أما هذه المدارس الجديدة تؤكد أثر العوامل الحضارية في هذه الناحية . عندما تؤكد مدرسة التحليل النفسي على أثر الطفولة إلى حد بعيد ، هذه المدرسة تهتم بحاضر الفرد وظروفه الراهنة أكثر مما تهتم بماضيه وظروف طفولته . من أصحاب هذه المدرسة " فروم " Fromm وكاردنر Kardiner وهورناي Horney .

٨. المدرسة السلوكية Behaviouralism :

في خلال الحرب العالمية الأولى (من ١٩١٤م إلى ١٩١٨م) ظهرت مجموعة من علماء النفس في أمريكا أطلقوا على أنفسهم اسم السلوكيين . كانت السلوكية كمدرسة التحليل النفسي لا تهتم بالشعور ، وكانت تشكك في قيمته . لقد كان من أشهر روادها جون واطسون (١٨٧٨م – ١٩٥٨م) John Watson . كان اهتمامه الأساسي إجراء التجارب على الحيوانات ولم تكن المناهج معروفةً في عهده . نقل السلوكيون هذا المبهم التجريبي من دراسة سلوك الحيوان إلى دراسة سلوك الإنسان . لقد اعتمد السلوكيون اعتماداً كبيراً على القيسيولوجيا أي علم وظائف الأعضاء ، ولذلك كانت أعظم إضافاتهم لعلم النفس هي دراستهم الاستجابة الشرطية Conditional Response ، وعلى الرغم من آراء السلوكية لاقت بعد كثير من التحدي والنقد [2] .

تنكر هذه المدرسة وجود قدرات واستعدادات فطرية . فليست هناك غرائز موروثة أو ذكاء موروث ، فالذكاء مجموعة معقدة من

[1] د . جمال أبو دلو ، الصحة النفسية ، الطبعة الأولى ، دار أسامة ، الأردن ، ٢٠٠٩ م ، ص ٢ ، ٦ .

[2] د . عبد الرحمن العيسوي ، أصول البحث السيكولوجي علمياً ومهنياً ، دار الراتب الجامعية لبنان ، ١٩٩٦م ، ص ٤٥ .

عادات يكتسبها الفرد أثناء حياته . لذا قال وطسن : " أعطوني عشرة من أطفال أصحاء أسوياء التكوين فسأختار أحدهم جزافاً ثم أدربه فأصنع منه ما أريد : طبيباً أو فناناً أو عالماً أو تاجراً أو لصّاً أو متسولاً ، وذلك بغض النظر عن ميوله ومواهبه وسلالة أسلافه " ، لذا نرى هذه المدرسة تهتم بدراسة عملية التعلم إلى حد كبير .

من أعلامها مع جون واطسون ادوارد ثورنديك (١٨٧٨ – ١٩٤٩) وإيفان بافلوف . حدد جون واطسون هدفه في كتابه " السلوك : مدخل إلى علم النفس المقارن " المنشور عام ١٩١٤م كما يلي : " علم النفس ، كما يراه السلوكي فرع موضوعي وتجريبي محض من فروع العلوم الطبيعية ، هدفه النظري التنبؤ عن السلوك وضبطه ، وليس الاستبطان قسماً هاماً من طرائقه ، كما أن القيمة العلمية للمعلومات التي يحصل عليها ليست متوقفةً على إمكان تفسيرها بالشعور ، ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كل إثارة إلى الشعور ومن ملاحظة الحالات النفسية " .

للسلوكية ثلاث ميزات ، الأول : يركز على الاستجابة المشروطة عنصراً أو ركناً هاماً للسلوك ، ثانياً : يركز على السلوك المكتسب بالتعلم ، وهذا يرفض وجود النزعات السلوكية الصلبية أو الفطرية . الميزة الثالثة : للسلوكية أنها تركز على سلوك الحيوانات . يقول واطسن : ليس هناك فرق جوهري بين سلوك الإنسان والحيوان ، ونستطيع أن ندرس عن سلوكنا من دراسة أعمال الحيوانات .

سكنر أيضاً حاول أن يبرهن به أن حالات النفس الداخلية غير قادرة للدراسة والبحث ، ولذا لم يكن هذا جزء علم النفس . علم النفس يدرس عن الاستجابات والمثيرات المختلفة ، مثلاً لا نفترض عن حالات النفس الداخلية مثل الدافع أو الباعث ، بل نرتقب وننتبه إلى حيوان لم يأكل لبضعة ساعات ، نستطيع أن نفهم ونلاحظ باعثه الجوعي مباشرةً .

٩. السلوكية الجديدة Neobehaviourism :

انتقد بعض علماء النفس المدرسة السلوكية وتعاليمها المتطرفة حتى قال أحد العلماء : " إن علم النفس قد انتحر على يد السلوكية " . ومن هنا ظهرت السلوكية الجديدة . وهي لا تزال تجعل لموضوع التعلم

وتكوين العادات مركز الصدارة من بحوثها . تعطي هذه المدرسة للتعلم وتكوين العادات أثراً كبيراً على السلوك كما يرون إمكان دراسة الحالات الشعورية عن طريق منهج التأمل الباطني .

١٠. مدرسة الجشتالت Gestalt Psychology :

أثناء الحرب العالمية الأولى أجرى أحد العلماء الألمان ولفجانج كاهلر Wolgong Kahler عدة تجارب على عملية التعلم عند القردة ، ولقد أقنعته هذه التجارب بأهمية عملية الاستبصار Insight في عملية التعلم . فالتعلم في نظره يتم عن طريق الاستبصار أي الفهم العام لعناصر الموقف الذي يوجد فيه الكائن الحي . فأيدت تجارب كلهم نظرية رجل آخر يدعي ماكس ورديمر Max Werthemir أن الخبرة لكل تعتبر أكثر أهمية من عناصرها أو أجزائها في تحديد معناها . فالكل له معان أكثر من مجرد تجميع معاني أجزائه جزءًا جزءًا . ومدرسة الجشتالت استمدت اسمها Gestalt School من كلمة ألمانيا معناها الصيغة Pattern ، والصيغة في مدركاتنا الحسية تتكون من شكل وأرضية بحيث يكون الشكل قوياً وبارزاً وواضحاً [١] .

مدرسة الجشتالت من أحدث المدارس في علم النفس يتزعمها ماكس فرذيمر (١٨٨٠م – ١٩٤٣م) وكير كوفكا (١٨٨٦م – ١٩٤١م) ولفجانج كوهلر المولود عام ١٨٨٧م . الفكرة الأساسية في علم النفس الجشتالتى هي أن الطريقة التى يتم بها إدراك موضوع يحددها السياق أو الصياغة الكلية Configuration التي يوجد فيها الموضوع . فالعلاقات القائمة بين مكونات المجال الإدراكى ، وليست الخصائص الثابتة لهذه المكونات الفردية هي تحدد الإدراك [٢] .

١١. المدرسة الإسلامية Islamic School :

للإسلام نظرة مستقلة في النفس الإنسانية تختلف عن غيرها

---

[١] د . عبد الرحمن العيسوي ، أصول البحث السيكولوجي علمياً ومهنياً ، دار الراتب الجامعية لبنان ، ١٩٩٦م ، ص ٤٦ .

[٢] د . عبد الله عبد الحي موسى ، المدخل إلى علم النفس ، جامعة الزقازيق القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ٢١ .

اختلافاً أساسياً في الفروع والتفصيلات ، قد تلتقي في بعض الأحيان بغيرها من النظريات . نظرة الإسلام في تكاملها وتناسقها وشمولها لكل جوانب النفس والحياة معاً ، غير مسبوقة من الوجهة التاريخية . ولا تزال حتى اليوم بعد كل ما ظهر من النظريات تنفرد وحدها بالشمول والعمق [1] .

الإنسان في منظور الإسلام جسم وعقل وروح . الجسم يختص باتباع الدوافع الفطرية الملحة كالأكل والشرب ، إلى غير ذلك من الدوافع الأولية اتباعاً اجتماعياً يتفق مع عرف وتقاليد وقيم الجماعة التي يعيش معها . العقل مهمته الأولى معاونة الإنسان في الوصول إلى أفضل الطرق والوسائل لاتباع تلك الدوافع الفطرية ، وكذلك التغلب على العقبات والمشكلات التي قد تقف حائلاً دون الاتباع عن طريق التدبر والتفكر . أما الروح فهي الطاقة التوازنية الربانية التى تساعد الإنسان على تحقيق هدفه الأسمى في الحياة من الارتفاع بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

يهتم الإسلام بالفرد كجسم وعقل وروح . وبإيجاد التوازن بين الجميع . يعترف الإسلام بالنشاط الحيوى للإنسان ، وهذا النشاط لا يؤذي الفرد ذاته كما لا يؤذي المجتمع في نفس الوقت . وبذلك يوصي الإسلام دائماً بالتوسط والاعتدال في السلوك ، مصداقاً لقوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (البقرة : ١٤٣) .

[1] محمد قطب ، الإنسان بين المادية والإسلام ، دار الشروق بيروت ، ١٩٩٧م ، ص ٩٩